بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة
الجزء الثالث من موسوعة الأمثال الشعبية

هذا هو الجزء الثالث من هذه الموسوعة وقد احتوى على مايقرب من ٢٥٠٠ مثلا من الميدان وهو المجتمع المصرى. وقد سرنا فيه على نفس النهج الذى التزامنا به فى الجزئين السابقين. فقد ذكرنا فى الجزء الثانى أن الأمثال هى التى تفرض التصنيف المناسب وقلنا «أننا قد مررنا بعدة تصنيفات اسقطنا خلالها عناوين واستحدثنا أخرى ودمجنا بعضها مع البعض الآخر وانتقلنا من العناوين الفرعية إلى توليد عناوين كبيرة وانتقلنا منها إلى تكوين رؤوس موضوعات ثم إلي تكوين موضوعات متجاورة ووراء بعضها»، ومازالنا نعتقد أن هذه الوسيلة هى الأسلوب الأمثل فى تصنيف مجموعة الأمثال هذه بصرف النظر عن التصنيف الشكلى أو الموضوعي أو الاستدلالى أو غير ذلك من التصنيفات.

ومع ذلك فان القارىء الكريم سوف يلحظ تغيرا طفيفا فى العناوين ولكنه التغير - كما نعتقد - الذى يزيد من إيضاح الصورة ويعمق من الرؤية السريعة المباشرة.

لقد احتوى هذا الجزء على خمسة عناوين كبيرة هى :

المجتمع - الفرد - الأسرة - العمل والانتاج - القيم الفكرية والدينية، ويندرج تحتها أكثر من ٣٤ عنوانا فرعيا وكلها تدخل فى نطاق كلمتى «آليات وتفاعلات» بمعنى الحركة التى تتولد عن الاحتكاك على المستوى الفردى والمستوى الجماعى، ومن خلال الآلية والتفاعل يمكن الوقوف على الحركة بسلبياتها وإيجابياتها.

ومع ذلك فإن هذا التقسيم ليس حاسما وهو محل خلاف كبير بين مدارس التصنيف كما أنه قد لايصدق على جميع الأمثال ولكن - فيما نعتقد - يصدق

على غالبيتها ومن ثم يمكن القول إن هذا التقسيم عبارة عن خطوط عريضة. وقد لجأنا إلى هذا التقسيم لسهولته وضوحه. فلدينا مجتمع متجانس يعيش بكثافة ضخمة على رقعة ضيقة من الأرض لاتتعدى ثلاثين ألف كيلومتر مربع بنسبة كثافة حوالى ٢٠٠٠ نسمة للكيلومتر المربع حتى يمكن القول أن مصر عبارة عن مدينة تعدادها ٦٠ مليون نسمة، واذن بالمجتمع المصرى شديد التلاصق شديد التجانس (دين، لغة، أرض، جو، نشاط، مستوى اجتماعى) بصرف النظر عن شريحة الناس اللى فوق وهم أقلية شديدة القلة - وقد أفرز هذا المجتمع المتماسك نصوص الأمثال لتعبر عن طبيعة البناء الاجتماعى والتجانس والتلاصق.

ويتكون المجتمع من الأسرة وهى لبنة صغيرة ـ ولديها نشاطات يمارسها الأفراد فرديا وجماعيا ضمن ضوابط وقيم مقررة أسريا واجتماعيا وبما يتوافق مع البيئة والمحيط، ولدى المجتمع قيم حاكمة تولدت من هذه النشاطات وهذا هو صلب التقسيم وهو تقسيم يغلب عليه الجانب الاجتماعى.

إن مشاكل التصنيف كثيرة، وإذا افترضنا إمكانية التصنيف بالنسبة لأشكال الفلوكلور الأخري كالحكايات والأساطير والأغانى..... الخ فان التصنيف المثلى يمثل مشكلة كبرى ذلك أن المثل بمفرده عبارة عن وحدة فكرية قائمة بذاتها، ويمكن تصنيف المثل الواحد ضمن عدة تصنيفات كالتصنيف اللغوى أو الموضوعى أو المكانى أو التصنيف طبقا للظاهرة الموجودة أو الوظيفى، فكيف يمكن دمج المثل كوحدة مع غيره من الوحدات لتكوين عنوان واحد؟ وحتى إذا افترضنا التقارب الموضوعى فما هى حدود هذا التقارب؟ وفى هذا المجال فقد يكون من حق النص أن يتحرك إلى عنوان آخر. ولذلك فاننا تردد باستمرار أن هذه العناوين تقريبية أو هى عناوين اجتهادية وهى خطوط افتراضية وهمية قابلة للحركة والتغيير، ولما كنا فى مرحلة الجمع وهى مرحلة تسبق الدراسة فان من حقنا أن نصنف النصوص تصنيفا يتفق مع رؤيتنا الخاصة، ونحن نعتقد أن ضبط التصنيف يأتى مع منهج الدراسة فاذا أردنا دراسة موضوع الصدق وهو موضوع فكرى - جمعنا الأمثال الخاصة بهذا الموضوع وإذا أردنا دراسة شخصية الفهلوى جمعنا الأمثال الدالة على ذلك، وشخصية الفهلوى قد تظهر لدى الحرفى فى المدينة ولدى الفلاح ولدى

الأنثى. . . الخ ومن ثم فإنه لاعلاقة للتصنيفات الاجتماعية بهذا الموضوع إلا في نطاق ضيق وخاصة إذا فرضت المهنة أخلاقيات خاصة أو سلوكا خاصا.

ومع ذلك فان دارس الأمثال قد تقع فى محاذير التحامل أو الافتعال أو التبرير وهى صعوبات أكثر شدة بالنسبة لموضوع الأمثال. ومصنف نصوص الأمثال ليس أمامه إلا اعتبار أن هذا التصنيف الذى ارتضاه لايزيد عن فرض أو جس نبض أو تمهيد للمنهج التحليلى.

*****

والأمثال جزء هام من الثقافة الشعبية تعبر عن فلسفة المجتمع ونظرته إلى الحياة، وتعبر عن أسلوب الفرد السلوكى مع الغير، ومع ذلك فمازلنا ننظر إليها من خلال الصورة التقليدية مثل الحماة أو «خالتى بمبة». بينما تسرى هذه النصوص بين فئات الشعب دون استثناء نسمعها بين كبار المثقفين والمفكرين والعلماء والسياسيين ورجال الدين، ونسمعها بين أواسط الناس وبسطائهم رجلا كان أوإمرة، ونقرأها فى الصحافة اليومية والأسبوعية ضمن مقالات الكتاب وأصحاب الأعمدة الصحفية وضمن كافة الموضوعات التى تنشرها الصحافة، فهذه الأمثال هى مخزون الذكراة الذى تلجأ إليه عند الحاجة وفى الوقت المناسب - والمثل - يبدو أنه يخرج عفو الخاطر ولكنه يعبر عن وجهه نظر القائل بدقة شديدة بل هو إحدى وسائله لاقناع الطرف الآخر برأيه وجذبه لتبنى أفكاره. والمثل من ناحية أخرى عبارة عن قانون شعبى ارتضاه الناس أو هو إحدى وسائل المنطق ضمن الحديث أو الحوار، ويمكن أن نقول أن الأمثال لاتخاطب المشاعر والعواطف بقدر ما تخاطب العقول، ولذلك مالت هذه الأمثال إلى الايجاز الذى يقول عنه علماء البلاغة هو أسلوب مخاطبة الأذكياء، وهكذا فاننا نجد قدراً من أمثال التلميح الذى يصل إلى حد الفزورة. فالمثل الذى يقول «اللى قبلنا قالوا البركة فى الحبِّتين» لايمكن أن يدرك تفسيره إلا من يعرف ماهى. فما هى الحُبتين؟

المعروف أن الخبز المصنوع فى الريف لايعتمد على القمح فقط ولكنه يتكون من خليط من القمح والاذرة بنسبة ١ : ٢ قمح وثلثان اذرة، وعند الميسورين بنسبة النصف لكليهما فالحبتين هنا هما القمح والأذرة.

ولذلك فان هذه النصوص أو بعضها لايكشف عن مضامينه أو أهدافه إلا من خلال السياق أو المحيط أو المناخ الاجتماعى العام أو حتى الظروف المكانية، وهذا مادفعنى إلى أن أضع السياق التاريخى أو النفسى أو الاجتماعى من خلال معايشتى كفرد من مجتمع ومن خلال تفسير أصحاب هذه النصوص وخاصة إذا ارتبطت هذه النصوص بحرفة أو ظروف مكانية خاصة.

وفى هذا المجال يمكن ملاحظة أن النص قد لا يحمل تفسيرا واحدا أو بعدا خاصا، ولكن يعبر عن أكثر من رؤية. وقد حاولت أن أقدم كل التفسيرات الممكنة أو المعانى التى تظهر فى النص، وقد ذكرت مع الأمثال الكثير من مناسباتها وهى مناسبات قد مررت بها - أو شاهدتها أو مر بها أحد المعارف، والواقع أن هناك نسبة أو نوعية من الأمثال لايمكن معرفة مغزاها إلا من خلال المناسبة، وهي غالبا ما تكون مناسبة محلية لايمكن استيعابها إلا فى بيئتها كأمثال التنابذ بين البلدان.

ومن ناحية أخرى فان الملامح الأساسية فى الأمثال يمكن معرفتها من عدة زوايا (أدبية - أخلاقية - فكرية وسياسية - اقتصادية - جغرافية - تاريخية - اجتماعية - دينية... الخ) وكان علينا أن نتعرض لكل هذه العناصر ولكن بحذر. ذلك أن التوسع فى تفسير النص المثلى ربما كان سلاحا ذو حدين:

أحدهما:

الدخول إلى أعماق النفس وذلك بالحفر عند الجذور وهى ضرورة وطنية وإنسانية فى نفس الوقت.

والثانى:

النزوع إلى التبرير أوْ لىّ الحقيقة تحت تأثير التعصب - ضد أو مع - أو النرجسية إلى الحد الذى يجعل من الشخصية النموذج أو المثال على غير الطبيعة البشرية. ومما يدخل ضمن المغالطات الفكرية أو الاستكانة إلى الأحكام المبسترة التى ترضى النفس وتريح العاطفة أو قد تدفع إلى التردد وفقدان الرؤية الصحيحة، وهى أمراض تعترى الذين يتحدثون طويلا عن أنفسهم.

ومن ناحية أخرى فاننا نرى أن الجملة المثلية عبارة عن وحدة قائمة بنفسها ويمكن عزلها عن سياقها لتصبح قانونا عاما قد يمتد دورها إلي خارج النطاق التاريخى أو الاجتماعى أو حتى النطاق الاقليمى إلى نطاق الانسانية جمعاء، وهذا ما يدفعنا إلى أن نقول أنها عبارة عن فلسفة عامة. فعندما يقول المثل «الحركة والسكون بيد الله» أو «الحركة فيها بركة» ألاَ يعبر هذا المثلان عن فلسفة إنسانية أو عن فلسفة الديانات السماوية الثلاث أما المثل الثانى فهو يعبر عن سلوك البشر جميعا.

*****

الشفاهية والجمع :

تظل مشكلة الشفاهية والجمع من المشاكل الرئيسية فى الفنون القولية الشعبية ذلك أنها أساس النص وعنصر بقائه، كما أن الشفاهية إحدى مشاكل الجمع. فالنص الشفاهى يختلف عن النص المكتوب من عدة جوانب منها أن النص الشفاهى ليس له مكان معين وغير ثابت وهو يقبل التغيير والتبديل والتطوير أو أيضا الافتعال، والنص الشفاهي من الممتلكات الخاصة بصاحبه بقوله برغبته أو لا يقوله.

ومن المسلم به أن النص الشفاهى يخضع لقوانين الذاكرة وهى تختلف من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر ويخضع أيضا للمدة ما بين السماع والاسترجاع، وهنا يحدث الحذف والنسيان بمعنى الحذف لما فقد أهميته والنسيان حسب القدرة على الاستظهار، ثم هناك أيضا عنصر الإضافة أو الإحلال أو التلفيق وقدرة الراوي على سبك المادة المثلية لغويا وفكريا وموضوعيا لكى تتوافق مع النص القديم، وهذه الآفات يمكن أن تفسر اختلاف نصوص الأمثال عن بعضها بكلمة أو فقرة بالإضافة أو الاحلال أو النسيان. إن هذه المشاكل وغيرها يمكن أن تعوق عملية الجمع ولكن النص يظل عند الرواية الشفوية خاضعا لقوانينها مسايرا لشروطها وهو ما يدفع الجامع إلى تسجيل بعض الأشكال المتعددة للمثل الواحد، ومع ذلك فان هذا التكرار له دور هام فى الكشف عن المتغيرات الحادثة فى الجملة المثلية الواحدة وارتباطها بالمكان أو الزمان مما يمكن أن ينهض كمادة للدراسات المقارنة ويكشف عن التطور اللغوي أو الفكرى أو ينهض كمادة

للدراسات اللغوية والصوتية وارتباطها بالمحيط الثقافى العام.

أما عندما يسجل المثل على الورق فانه يصبح وثيقة تاريخية، وبذلك يفقد طابع الحركة ومرونتها ويتوقف عن التطور وينتقل من الشفاهية إلى الاستقرار ومن الحركية إلى الجدلية الفكرية ومن الروح إلى الجمود والتاريخ، وبذلك يمكن للباحث بعد فترة زمنية معينة مقابلة النص المطبوع على النص الشفاهى ودراسة التغييرات الطارئة.

أما عن كيفية تحويل هذا النص الشفاهي إلى نص مكتوب ـ أى الجمع ـ فإن ذلك يحتاج إلى الأسلوب الذى يناسب المادة المجموعة. فما يصلح لجمع الحكاية الشعبية لايصلح لجمع الأغانى، وما يصلح فى بيئته قد لايصلح فى بيئة أخرى، وما يمكن جمعه فى منطقة جغرافية لايناسب منطقة أخرى، وما يجوز بالنسبة للفنون القولية قد لايصلح مع الفنون التشكيلية. وإذا كانت هذه المشاكل تمثل تحديات أمام الجامع فان التحدى الأكبر - فيما نعتقد - هو شخص الراوى وفى كل الأحوال فانه يجب اتخاذ الأسلوب المناسب للجمع حسب النص والظروف الجغرافية والاجتماعية.

أما بالنسبة للأمثال فان هناك صعوبات جمة أولها:

صغر الجملة المثلية وصعوبة استدعائها كما أن جهاز التسجيل أو التصوير الذى قد يصلح للأغنية الشعبية أو الحكاية لايصلح للنص المثلى ذلك أن الأغنية أو الحكاية قد يسهل استدعائها من الذاكرة. فالذاكرة تحتفظ بسهولة ويسر بالنصوص الطويلة أو الدرامية وتستطيع أن تربط بين التصور أو التخيل وارتباط البداية بالتسلسل وهو ما يساعد على تسهيل الحفظ والاسترجاع هذا فضلا عن الفارق الضخم بين الأنواع الأخرى والمثل من حيث الكم، وهى أمور أكثر يسرا مع الأعمال الطويلة بينما نجد أن الجملة المثلية عبارة عن نص طائر يخرج من المخزون مع المناسبة، وهذا النص غير قابل للاستدعاء إلا بخلق المناسبة، وفى هذه الحالة ومع براعة الجامع فانه لايستطيع أن يخلق عشرين مناسبة أو أكثر لكى يجمع عشرين مثلا. وحتى فى حالة وجود هذه المناسبات - فهل ذاكرة الراوى يمكن أن تسعفه فى إيراد المثل. وفضلا عن ذلك فان المناسبات لايمكن تعميمها بين كل الفئات والطوائف.

فالحديث مع الفلاح يختلف عن الحديث مع الحرفى والمناسبات فى الريف غيرها فى المدينة ومناطق الصحراء أو مناطق السواحل، والظروف فى الصعيد تختلف عنها فى ريف الوجه البحرى وتختلف عما فى مدينة كالقاهرة، والظروف بالنسبة للمرأة تختلف عنها مع الرجل وليست كل امرأة تصلح لكى تكون راوية يمكن الاستفادة منها، والحال أيضا بالنسبة للرجل. يضاف إلى ذلك أن الذين يتمتعون بموهبة استيعاب المثل وضربه قلة قليلة لاتشفى غليل الجامع.

كل هذه صعوبات تواجه جامع المثل ومن ثم فلا حيلة أمام الجامع إلا بتوسيع دائرة الجمع بمعنى عدم الاقتصار على الجمع الفردى التقليدى حيث يذهب الجامع إلى أحد الرواة ويجلس إليه ليسجل منه، فهذه الطريقة عبارة عن طريق مسدود ونتائجه ضعيفة لا تكافىء الجهد المبذول فكيف يتم جمع هذه النصوص؟

ليس أمام الجامع إلا الذهاب إلى أماكن التجمعات كالمدارس وتكليف بعض الزملاء من المدرسين بالجمع عن طريق الطلبة الذين يندسون بين أهليهم ويجمعون، وفى هذا المجال فانه يمكن الاستفادة من قصور الثقافة المنتشرة فى الأقاليم كوسيلة للجمع حيث أن قصور الثقافة يمكن أن يكون مكانا مناسبا للتجمعات الشبابية والتى يمكن أن تنتشر بين أهليهم ومعارفهم وتجميع النصوص، ولدينا قصور الثقافة المنتشرة فى مصر من الاسكندرية إلى أسوان ويمكن تكليف بعض الإخوان أو الزملاء فى بعض المناطق. ومهمة الجامع هنا هى تصفية الكم المجموع. وقد حصل الجامع فى فترة على ألف وخمسمائة نص مثلى وكانت حصيلة التصفية لاتتعدى مائة وخمسون نصا جديدا وهو ما يشير إلى صعوبة التجميع.

ونعود إلى الجمع التقليدى بمعني جامع مع راو. والراوى هنا هو الذى يتمتع بموهبة الحفظ وضروب المثل واسترجاعه - فنقول أن الخطوة الأولى هى الاقتراب النفسى من الراوى بايجاد نوع من الألفة وهذه تحتاج الى وقت طويل وتخضع لظروف الراوى ودرجة استعداده، وهذه الألفة تعتمد على ذكاء الجامع ودماثة خلقه ولباقته فى كيفية استدراج الراوى دون مشاكل واختيار التوقيت المناسب وهذه المرحلة هى ما يمكن أن نسميها بالمرحلة التمهيدية.

وفى المرحلة الثانية يلجأ الجامع إلى تنشيط ذاكرة الراوى ومساعدتها على استرجاع المحفوظ وذلك باستغلال الظرف المناسب لالقاء مثل غريب ثم يراوح الجامع بين الأمثال الغريبة والأمثال الشائعة سهلة التداول فيتحرك المخزون الثقافى فى اللاشعور وتطفو الأمثال. وفى كل الأحوال فإن ما يمكن جمعه لايتعدى عدة أمثال أو حتى لاشىء وعلى الاطلاق، ولكن فى المدى الطويل ومع تكرار اللقاء - بشرط الاستعداد الدائم لدى الراوى - فان ذاكرة الراوى تكون فى حالة استنفار وانتباه وعند معاودة اللقاء فإن الحصيلة قد تكثر، وعلى قدر تنويع الأمثال التى تلقى على سمع الراوى ومناسبتها لموروثاته تكثر الغلة.

وفى مرحلة تالية تتحول العلاقة بين الجامع والراوى إلي مبارزة فكرية مثلها فى ذلك مثل أصحاب التندر أو القافية حينما يقول أحدهم للآخر «ماسمعتش آخر نكتة» ويلقى الفكاهة فيرد عليه الآخر وهكذا.

وفى مرحلة تالية وبعد ازدياد الالفة بين الطرفين فقد كان كاتب هذه السطور يصحب معه الكشكول الجامع وبه عدة مئات من النصوص المتنوعة للأمثال ويقرأ على الراوى ما سجله وخاصة تلك النصوص التى تصادف هوى فى نفس الراوى مع التباطؤ فى القراءة والتعليق فى بعض الأحيان على النص وظروفه فتتحرك ذاكرة الراوى وهكذا يمكن استخراج ما يمكن جمعه، وهذه العملية تحتاج إلى متابعة، ومع ذلك فان الحصيلة لاتزيد - فى أحسن الأحوال - عن عشرات النصوص بعد ترك النصوص المتكررة

ومن ناحية أخرى فان تكرار اللقاء يفيد فى جعل ذاكرة الراوى فى حالة انشغال دائم بالنصوص وقد يتذكر بعض النصوص فى غياب الجامع فيسجلها انتظارا العودة الجامع، ومن ناحية ثانية فإن هذا الراوى يعد نموذجا نادر الوجود ذلك أن الجميع منشغلون بأمور دنياهم فكيف يسمح الراوى المكافح للجامع بأن يعطله عن عمله ويتفرغ لموضوع لايهمه فى شىء..؟ أو موضوع يفيد الجامع، وقد يبالغ الراوى فى درجة فائدة الجامع. وهل يسمح لنفسه بأن ينشغل ويجمد أعماله لمصلحة الغير أيا كان هذا الغير؟

وبهذه المناسبة فقد اعتدت أن أثير الأمثال فى أى لقاء مع الآخرين عندما اتوسم

الحصول على شيء وذهبت إلى سمكرى سيارات ووجدت أن السيارة سوف تحتاج إلى أكثر من عشرين يوما، ومنذ اليوم الأول حرصت على التواجد يوميا مع السمكرى والاقتراب منه ساعات كثيرة فى اليوم وكان يقوم بعمله ومن جانبى أتابع تنشيط ذاكرته واستطعت فى هذه الفترة استخراج كمية لابأس بها من النصوص الجديدة بل أنه فى بعض الأيام كان ينتظرني صباحا ببعض الأمثال التى تواردت على خاطره وهو فى منزله وسجلها قبل أن تضيع أولا يستطيع تذكرها فكان يسجلها فى أية قصاصة ورق وأحيانا كان يسجلها على علبة السجاير.

ومن ناحية أخرى فان الأفلام المصرية وخاصة القديمة والتى تدور فى الأحياء الشعبية يمكن أن تكون مصدرا لبعض الأمثال. والمعروف أن الفيلم الواحد يختزل حياة مجتمع أو طائفة من البشر مختلفة الطباع تعانى صراع الحياة اليومية بكل متناقضاتها، والفيلم الواحد يشمل الفرد والأسرة والجيران وأبناء الحارة والمجتمع المحلى والدوائر الأكبر، وباختصار فان الفيلم الواحد فى الحى الشعبى يختزل حياة المجتمع التى تمتد إلى سنوات فى حوالى ساعتين، وأيضا فان الفيلم الواحد إذا احتوى على شخصية الحماة أو داربين أصحاب الحرف كالسماكين أو البمبوطية أو الباعة الجائلين أو غيرهم فانه يكون ثريا بالنصوص المثلية.

وأيضا فان مجموعة من الأفلام الشعبية المتنوعة يمكن أن يختزل حياة جيل كامل بل مجموعة من الأجيال وفي هذا الجزء فقد شاهدنا مجموعة من الأفلام هى:

كل هذا الحب - قمر ١٤ - العيش والملح - قدم الخير - العزيمة - رحمة السماء - لو كنت غنى. وأيضا مسلسل «السوق» و مسرحية «مين اتجوز مين».

وفى ختام هذه المقدمة نود الاشارة إلى أن تكرار الأفكار فى بعض الأماكن له ضرورة، فالمثل عبارة عن وحدة مستقلة بنفسها ولذلك ينبغى أن يصاحبها التعليق الخاص بها ولاتجدى هنا الإحالات (انظر) وغيرها مما يشتت القارئ، كما أننا فى هذه الشروح لانهتم بالتوسع فى الدراسة لأننا نستهدف تقديم التعليق المناسب لكل الفئات أما البحث والدراسة المعمقة فمجالها دراسات مستقلة لابراز فلسفة الشخصية المصرية.

ولعلنا نكون قد وفقنا إلى تقديم ما يرضى القارىء الكريم

وفقنا الله لخدمة مصرنا العزيزة.

دكتور إبراهيم أحمد شعلان